أعمدة النفوذ الأمريكي في المنطقة

21-1-2004

ترجمة : فيصل فرحي من كتاب "أوهام الشرق الأوسط"

أما في منطقة "الشرق الأوسط"، فقد مارست واشنطن سياستها من خلال عناصر وآليات : - سيطرة حقيقية أمريكية تستتر وراء واجهات محلية عربية أو غير عربية. - التغاضي من جانب واشنطن عن سلوكيات تلك الواجهات المحلية الحاكمة حتى ولو شملت تلك السلوكيات ممارسة القهر أو الاستبداد أو حتى العسف والتعذيب. - إطلاق أيدي شركات النفط الأمريكية في توظيف استثماراتها على أوسع نطاق في الشرق الأوسط ومن ثم الحصول على إرباح طائلة تصب في شرايين اقتصاد

بقلم نعوم تشومسكي

في مطلع عام 1990 كان صدام حسين صديقا عزيزا، مفضلا ومقربا من الولايات المتحدة بقدر ما كان شريكا تجاريا لواشنطن. وقد ظل يتبوأ هذا الموقع في شهر أغسطس من العام نفسه عندما أقدم على ارتكاب أولى الجرائم التي لا يمكن أن تغتفر. كانت الجريمة أن صدام حسين عصى الأوامر ومن ثم خسر مكانة "المعتدل" التي كان يتمتع بها والتي لم يكن ليؤثر عليها أو ينال منها ما سبق وأقدم عليه من أفعال مثل استخدام الغاز ضد الأكراد أو تعذيب المعارضين المنشقين. وإن ما حدث مع صدام مجرد سيناريو متواتر التكرار سبق وأن جربته الولايات المتحدة مع نرويجا، وكثيرين آخرين (المعروف أن نوريجي -ديكتاتور بنما السابق- كان صنيعة أميركا وعميلا لمخابراتها المركزية)، وضالعا في أنشطة إجرامية شتى ليس أقلها تهريب المخدرات. ولكن خطيئته أنه خرج على السيناريو المكتوب والموصوف، أو بالأحرى عصى الأوامر أو تمرد على التعليمات، فحقت عليهما لعنة الملاحقة والعقاب.

هكذا تغيرت أقدار هذه العينة من حكام العالم الثالث وخاصة مع دخول العالم في عقد التسعينيات الأخير من القرن العشرين. وكان عقدا شديد التميز والخصوصية يكفي أنه حل على رزنامة التاريخ المعاصر بعد سقوط جدار برلين عام 1989 وعاصرت بداياته تداعي انهيار وزوال الاتحاد السوفييتي ومن ثم يزور أمريكا.

أين إذن موضع الشرق الأوسط، بمشكلاته وهمومه وصراعاته من هذه الصورة الكوكبية الحديثة؟: الأولوية العليا تتمثل في إدامة السيطرة على "أعظم الجوائز المادية في التاريخ" وهو أرخص وأغزر مناطق احتياطيات النفط في العالم لتظل بيد الولايات المتحدة. والذي حدث فور الحرب العالمية الثانية أن تم طرد فرنسا من الشرق الأوسط بصورة خشنة وفظة على أساس قانوني طريف هو أنها كانت دولة "عدوا"، إذ كانت قد وقعت تحت احتلال ألمانيا النازية، أما بريطانيا فقد أبقوا عليها لتكتفي بدور فرعي ثانوي لأمريكا أو كما عبر واحد من أركان إدارة الرئيس كيندي السابق: دور المساعد بالنسبة لنا (الكلمة المعاصرة الآن هي الشريك). وكم كانت لندن تفضل سماع الكلمة المعاصرة على الرغم من أن دبلوماسييها كانوا يفهمون تماما أن بريطانيا لن تكون بعد الحرب سوى "شريك ثانوي" يلعب دورا ثانويا وسط مدار من القوة تهيمن عليه سيطرة الولايات المتحدة التي ما لبثت أن مارست من جانبها تلك السطوة بصورة "سافرة لا تعرف الخجل" بما تجاوز حتى النهج التقليدي الذي كان يعرف باسم "مناطق النفوذ". في تلك الفترة بدأت سجلات الخارجية البريطانية تتحدث عن الاستعمار الاقتصادي والسطوة الإمبريالية التي يمارسها رجال الأعمال ودوائر "البيزنس" الأمريكية تحت ستار وفي ظل شعارات مساعدة الشعوب ومد اليد إلى الدول وتكريس نزعة الانفتاح الدولية وكانت شعارات، جذابة وبراقة، استهوت جماعات ونخبا وشعوبا. أما في منطقة "الشرق الأوسط" في ظل هذا المشهد المستجد والمتمثل في سياسة أمريكا على مدى نصف القرن الماضي فقد مارست واشنطن سياستها من خلال عناصر وآليات :

- سيطرة حقيقية أمريكية تستتر وراء واجهات محلية عربية أو غير عربية.
- التغاضي من جانب واشنطن عن سلوكيات تلك الواجهات المحلية الحاكمة حتى ولو شملت تلك السلوكيات ممارسة القهر أو الاستبداد أو حتى العسف والتعذيب.
- إطلاق أيدي شركات النفط الأمريكية في توظيف استثماراتها على أوسع نطاق في الشرق الأوسط ومن ثم الحصول على إرباح طائلة تصب في شرايين اقتصاد أمريكا من جهة وتدعم مرشحي الكونغرس المفضلين من جهة أخرى.
- تزويد إسرائيل بأكبر مبالغ من المعونات والمساعدات بلغت نحو 35 في المئة من الميزانية السنوية لإسرائيل على نحو ما قدرته دراسات جامعة هارفارد الأمريكية، بل زادت عن هذه النسبة مع توالي سنوات منتصف القرن العشرين.

ومن مفارقات السياسة العالمية المعاصرة، أن أمريكا لم تعارض ذلك الارتفاع الذي طرأ على أسعار النفط بعد أحداث عام 1973: أولا كان هذا الارتفاع مؤقتا. وثانيا: أن الإدارة الأمريكية منذ ذلك الحين عمدت إلى إعادة تدوير "البترو دولارات"، بمعنى الحصيلة الناجمة من زيادة الأسعار لتتوجه إلى خزانة الولايات المتحدة أساسا وذلك من خلال مبيعات الأسلحة ومشروعات الإعمار والتشييد. فضلا عن الزيادة الطائلة أيضا التي استطاعت أن تجنيها شركات النفط الأمريكية ذاتها من ارتفاع على الأسعار. وقد تجمعت تلك العوامل لتفضي إلى اعتدال الميزان التجاري بين أمريكا ودول منظمة الأوبيك بل أصبح الميزان المذكور في صالح الولايات المتحدة نفسها.

في إطار هذه الأوضاع كان من المهم أيضا الحفاظ على قوى وعناصر الواجهات المحلية في الشرق الأوسط. كان من المهم حمايتها من الاتجاهات الوطنية أو القومية الراديكالية. لهذا كان مطلوبا "نوعية" معينة من الأعوان المحليين لإبقاء هذه الأوضاع بعيدا عن رياح التبديل أو التغيير، وهم الأعوان الذين أطلقت عليهم إدارة نيكسون السابقة الوصف التالي: الشرطة المحلية الجاهزة، ومن

اللافت أن هؤلاء "الأعوان" الجاهزون كان من المفضل لدى واشنطن، أن لا يكونوا عربا بل الأفضل أن يكونوا من القوى غير العربية من سكان الشرق الأوسط (إيران الشاه وتركيا وباكستان وإسرائيل).
إلى جانب هذه القوى المحلية -غير العربية- كانت الحاجة أيضا إلى المساعد الذي ارتضى لنفسه المرتبة الأدنى ليفوز بنصيب، ولو محدود متهافت من "الكعكة" الشرق أوسطية، هو المساعد، أو الشريك الأصغر البريطاني. صاحب دور الكومبارس الثانوي في دراما السياسة بالشرق الأوسط. كان هذا هو دور بريطانيا مع الولايات المتحدة في حرب الخليج. وعلى الرغم من هذه المكانة المتواضعة فلم يكن بإمكان الولايات المتحدة أن تستغني عن قريبتها ابنة العم عبر الأطلسي لا في صراع الخليج ولا في عملية غزو العراق في ربيع العام الحالي. فمؤهلات بريطانيا بكل تاريخها الإمبريالي لا يستهان بها في هذا المضمار.هنا يقول المؤرخ العسكري الإنجليزي جون كيغان: البريطانيون يصدرون عن ميراث طويل يمكن التعويل عليه في هذا المضمار: لقد أمضوا أكثر من 200 سنة وهم يجوبون البحار ويمارسون الاستكشاف الجغرافي ويحاربون الأفارقة والصينيين والهنود والعرب، تلك أشياء اعتاد البريطانيون عليها فأصبحت بمثابة خبزهم اليومي، مما حول مهامهم الجديدة (في الخليج أو العراق) إلى مهام مألوفة لديهم ومن ثم جاءت مهاراتهم في قرع الأجراس الإمبريالية ورفع أعلامها وكأنهم يرددون في ذلك شعار السياسي الاستعماري الإنجليزي العتيد "لويد جورج" الذي لم يتورع عن القول: نحن نحتفظ بالحق في قصف هذا الصنف من الزنوج.
وإذا كانت هذه هي حال القوى الكبرى في الشرق الأوسط، فما بالك بالقوى البشرية من الفقراء والمحرومين والمقهورين ممن لا دور لهم في حملات أمريكا ولا مساهمات من جانبهم في جبروتها؟!
تلك هي القوى الشعبية في جبال الأكراد أو في عشوائيات القاهرة أو مخيمات الفلسطينيين. وهناك من ينظر إلى تلك الفئات والقوى المحرومة على أنها بلا مكاسب بل بلا حقوق أصلا، لأن معاناتها وشكاواها وربما تحركاتها يمكن أن تؤدي إلى شيوع القلاقل أو الاضطراب ومن ثم زعزعة الاستقرار!، مما يعكر صفو تحقيق المصالح العليا للقوى والفئات والطبقات الحاكمة في الولايات المتحدة وحلفائها.
ومع ذلك مازالت المشكلة مطروحة باعتبارها قضية تحرير وطني ومازال الفلسطينيون يناضلون من أجل حقوقهم ودولتهم. ومازال العالم يبحث عن سلام في الشرق الأوسط، لكن أي سلام وفي ظل أي شروط، هناك ثلاث ملاحظات أساسية في هذا الشأن:
1- ضرورة أن تسأل: أي نوع من السلام نريد في الشرق الأوسط. سلام بمعنى قهر الآخرين وإسكات الأصوات أم هو سلام العدل؟
2- إن سلام الشرق الأوسط لا يتعلق وحسب بصراع فلسطيني ـ إسرائيلي بل إن له أبعادا تخص الدول والشعوب المتاخمة والمجاورة: العراق. تركيا، الأكراد، الخ.
3- إن أمريكا لابد وأن تضطلع بدور مهم، إن لم يكن الدور الأهم في سلام المنطقة، بحكم مصالحها الحيوية على صعيدها وليس بحكم إمكانية تأثيرها على سائر أطراف الصراع.